العرب
الأربعاء 2019/07/17
السنة 42 العدد 11410

المأزق اليمني بوجهه الإيراني

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

هناك مأزق يمني مستمرّ على كلّ المستويات. لعل أكثر ما يعبّر عن هذا المأزق ممارسات الحوثيين في شمال الشمال اليمني منذ سيطرتهم على صنعاء في الواحد والعشرين من أيلول- سبتمبر 2014. ما يتبادر إلى الذهن قبل أيّ شيء آخر هو الجو الحزين السائد في العاصمة اليمنية التي كانت في طريق التحوّل إلى مدينة يصلح العيش فيها في السنوات العشر الأخيرة من حكم علي عبدالله صالح. يروي الذين زاروا صنعاء في الفترة الماضية أنّ لا شيء في المدينة العريقة غير البؤس. لم تعد لصنعاء علاقة بصنعاء التي كان يعرفها زوّارها والتي أصبحت فيها أماكن لهو ومقاه كثيرة. هناك ظلم ليس بعده ظلم لحق بأهل المدينة التي استقبلت مواطنين من كلّ المناطق اليمنية. لم تغلق صنعاء أبوابها في وجه أحد في يوم من الأيّام.

ما الذي فعلته صنعاء ليقع عليها كلّ هذا الظلم، وكي تتحوّل إلى نسخة عن غزّة بعد سيطرة "حماس" عليها ابتداء من منتصف العام 2007؟ الأكيد أن صنعاء لا تستأهل هذا المصير الذي هو تعبير عن انتصار ثقافة الموت على ثقافة الحياة. ترمز صنعاء حاليا إلى عمق المأزق اليمني بوجهه الإيراني، خصوصا أنّ ليس ما يشير إلى قرب انتهاء الاحتلال الحوثي للمدينة. أكثر من ذلك، ارتكبت الأمم المتحدة عبر مبعوثها مارتن غريفيث خطأ كبيرا عندما أضفت شرعية على الوجود الحوثي في صنعاء، واعتبرت أنّ الأزمة هي بين "الشرعية" ممثلة بالرئيس الانتقالي عبدربّه منصور هادي من جهة، و"أنصار الله" من جهة أخرى.

> سيستمرّ المأزق اليمني طويلا ما دام ليس هناك تغيير على الجبهات. سيناور الحوثيون بكلّ الوسائل من أجل البقاء في الحديدة. المأزق اليمني سيتعمّق يوما بعد يوم ما دام ليس هناك أي تغيير جذري على إحدى الجبهات الأساسية

مثل هذا الخطأ لغريفيث لا يؤدي سوى إلى تعميق المأزق اليمني ومأساة صنعاء والمدن اليمنية الأخرى، بما في ذلك تعز وعدن. يعود ذلك إلى أن الحوثي ليس حلّا... كما أنّ "الشرعية" ليست حلّا أيضا. الدليل على ذلك أنّ "الشرعية" لم تتمكن من تحقيق أيّ تغيير ذي معنى على الأرض منذ سنوات عدّة. قريبا سيدخل الاحتلال الحوثي لصنعاء سنته السادسة. لكنّ الوضع على الأرض سيبقى يُراوح مكانه في غياب أي قدرة لدى "الشرعية" على تحقيق اختراق عسكري أساسي على إحدى الجبهات الأساسية، بما يجعل "أنصار الله" ومن يقف خلفهم يعيدون النظر في حساباتهم.

لا شكّ أنّ "عاصفة الحزم" التي انطلقت في آذار – مارس 2015 حققت الكثير. حالت أوّلا دون سيطرة الحوثيين، الذين ليسوا في نهاية المطاف سوى أداة إيرانية، على كلّ اليمن. من يريد أن يتذكّر أن سيطرة الحوثيين على صنعاء تلتها اندفاعة نحو الجنوب وصولا إلى عدن وميناء المخا؟

بذل التحالف العربي جهودا كبيرة لاستعادة عدن، وحال دون تمكن إيران من الادعاء بأنّها تستطيع السيطرة على ميناء المخا وبالتالي إغلاق مضيق باب المندب الذي هو مضيق دولي والمدخل إلى قناة السويس. ليس سرّا أن باب المندب يعتبر من أهمّ الممرات المائية في العالم وكانت سيطرة الحوثيين عليه موضع تبجّح إيراني. تحدّث وقتذاك غير مسؤول في "الجمهورية الإسلامية" عن سيطرة إيران على مضيقي هرمز وباب المندب وتحكّمها بهما. كانت استعادة ميناء المخا بمثابة سحب ورقة ابتزاز أرادت إيران استخدامها انطلاقا من وجودها المباشر وغير المباشر في اليمن.

أدّت "عاصفة الحزم" جزءا من المطلوب، لكنّ السرّ الذي لا يزال سرّا، بل لغزا، لماذا كان هذا الإصرار، منذ البداية، على توفير الأمم المتحدة تغطية للوجود الحوثي في صنعاء. فمباشرة بعد سيطرة ميليشيات "أنصار الله" على صنعاء، وافق عبدربّه منصور على توقيع اتفاق معهم باركه جمال بنعمر مبعوث الأمين العام للأمم المتحدة وقتذاك.

ليس ما يفعله غريفيث حاليا سوى استكمال لذلك الاتفاق الذي لم يحترم الحوثيون حرفا منه، على الرغم من كلّ الخدمات التي قدّمها لهم الرئيس الموقت الذي لم يكن لديه همّ سوى الانتقام من علي عبدالله صالح، وكأن المسألة مسألة حسابات شخصية معه.

لم يكتف الحوثيون بالحصول على اعتراف من الأمم المتحدة بشرعيتهم وصولا إلى تكريس هذه الشرعية عبر اتفاق استوكهولم، بل عمدوا فورا إلى وضع الرئيس الانتقالي في الإقامة الجبرية في صنعاء. استطاع عبدربّه منصور الهرب بجلده في شباط – فبراير 2015 والانتقال إلى عدن. لكن الحوثيين ما لبثوا أنّ صفوا حسابا قديما مع عدوّهم اللدود علي عبدالله صالح الذي صفّوه بدم بارد في كانون الأوّل – ديسمبر 2017 داخل منزله في صنعاء.

سيستمرّ المأزق اليمني طويلا ما دام ليس هناك تغيير على الجبهات. سيناور الحوثيون بكلّ الوسائل من أجل البقاء في الحديدة. خلاصة الأمر أن المأزق اليمني سيتعمّق يوما بعد يوم ما دام ليس هناك أي تغيير جذري على إحدى الجبهات الأساسية.

لعلّ أخطر ما في الأمر أنّ ليس ما يشير إلى أنّ "الشرعية" قادرة على أن تكون في مستوى الأحداث. جعلت نفسها على هامش هذه الأحداث سياسيا وعسكريا، فيما المنطقة كلّها تغلي. لم يعد موضوع اليمن مرتبطا باليمن وحده، بمقدار ما صار مرتبطا بما يدور في المنطقة والنهاية التي ستستقرّ عندها المواجهة الأميركية – الإيرانية.

في انتظار ذلك، سيبقى أهل صنعاء يعانون من الظلم، كذلك أبناء كلّ المناطق اليمنية التي انتشر فيها الجوع والمرض والجهل. لكنّ صنعاء تبقى في البال دائما. الأكيد أنّها تستحق أفضل من الحوثيين الذين يدينون بالكثير للحلف السرّي غير المقدس الذي أقاموه مع الإخوان المسلمين. هؤلاء جزء من "الشرعية" اليمنية الآن. وكلما مرّ الوقت، يتبيّن أن لا نيّة لديهم في تحقيق أي اختراق عسكري على أي جبهة من الجبهات، بل يجدون مصلحتهم في بقاء الجمود العسكري على حاله.

نعم، صار مصير اليمن معلّقا على المعركة الكبرى الدائرة في المنطقة. ما دام النظام الإيراني موجودا، سيبقى الحوثيون في صنعاء وسيبقى أهل صنعاء يعيشون حياة لا يستأهلونها، تماما كما يعيش أهل غزّة تحت جزمة "حماس" و"الجهاد الإسلامي".

الأكيد أن اليمن يستأهل أفضل من ذلك كلّه بكثير، على الرغم من أنّ لمأزقه وجوها عدّة ليس عبدالملك الحوثي سوى أحدها. فما يسمّى "الشرعية" وجه آخر للمأزق، كذلك ذلك الإصرار غير المبرّر لدى المبعوث الأممي على الرهان على أن في الإمكان إخراج الحوثيين من الحديدة، ووضع الميناء تحت سيطرة قوّة دولية.

كان الخروج من المأزق اليمني ممكنا في الماضي لو كانت "الشرعية" قادرة على تحقيق حسم عسكري ما على جبهة مهمّة ما.

الآن، يبدو كلّ شيء معلّقا على ما يدور في الإقليم وعلى النتائج التي ستسفر عنها المواجهة الأميركية – الإيرانية، والوضع الذي ستكون فيه إيران لدى انتهاء هذه المواجهة...

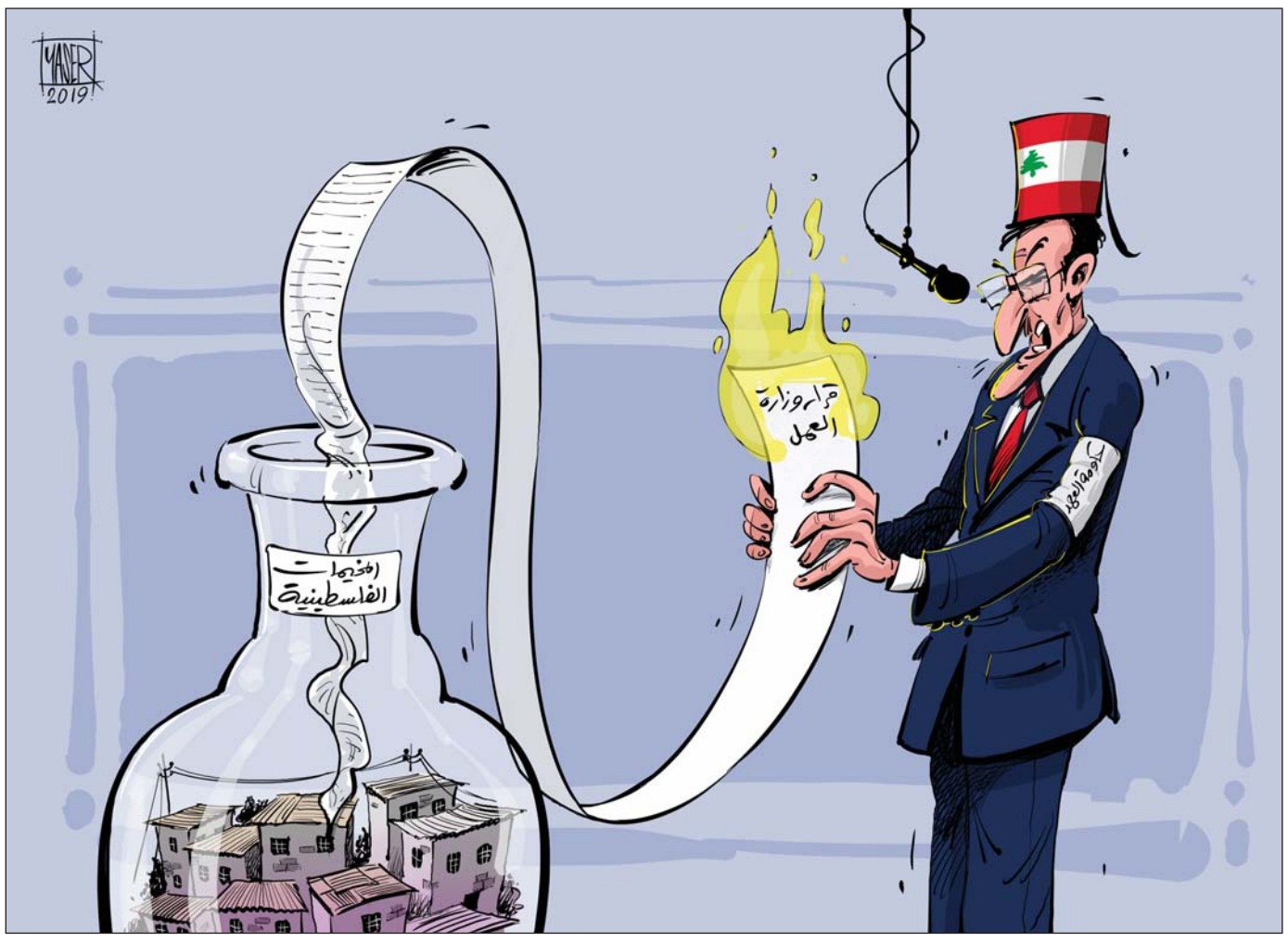

حماس.. الأوضاع القديمة والتكيف الجديد

عدلي صادق
كاتب وسياسي فلسطيني

بدت مقاربة حركة حماس، الجديدة، للتعاطي مع الأوضاع القديمة الضاغطة على الفلسطينيين في وطنهم، حييّة مستشعرة الحرج في العلن، فصيحة بليغة في السر. كان موقفها، قبل إحدى عشرة سنة، هو الصدود البات عن كل مفردات التسوية والتهدئة والتعاملات اليومية مع واقع الاحتلال، الذي لا جحافل البتة، لتحقيق بدائله.

فقد كان الواقع معلومًا ومقروءًا، دون أن يتغير صدود حماس التي استمرأت الحكم. وربما ساعدها على الصدود أمران، الأول هو إخلاء جيش الاحتلال غزة، والثاني الصدود الإسرائيلي المضاد والبات، الذي تفاقم مع وصول اليمين العنصري الأكثر تطرفًا إلى الحكم. في الأمر الأول، لم يكن إخلاء غزة، يعني إنهاء الاحتلال الذي اتخذ شكل الحصار الذي يصعب أن تُجدي معه عمليات القصف التي استحثت قصفا إسرائيليًا أعتى وأكثر إيلاما وخسارة بما لا يقاس.

ولم تمر خمس سنوات، حتى أصبح الهدف الأقصى هو تخفيف الحصار وتثبيت التهدئة، لتحاشي التدمير الشامل لقطاع غزة، دون أن تقترب الحركة التي حكمت منذ منتصف العام 2007 من تحقيق أبسط المتطلبات التي لن تؤدي استجابة إسرائيل لها، إلى أية مضاعفات سلبية عليها. مثال ذلك تسجيل المواليد فلسطينيًا، لاعتماد الطفل الجديد مواطنًا في غزة، يمتلك رقما وطنيا وفي مقدور ذويه استصدار جواز سفر فلسطيني له.

فعلى هذا الجانب وحده، تراكم عدد المقيمين بغير أرقام وطنية، الذين وصلوا إلى غزة بتصاريح زيارة إسرائيلية وبقوا فيها، أو اضطروا للعودة إلى بيوتهم قادمين من الأقطار التي عملوا فيها، بعد أن استُغني عن خدماتهم. فهؤلاء، مع المواليد الجدد لأبنائهم، أصبحوا يشكلون نحو ربع مليون مواطن، لا يستطيعون السفر لمتابعة مصالحهم ومصالح أبنائهم في أسواق العمل والمؤسسات التعليمية في الخارج وفي المشافي وفي المشاركة في أي نوع من المناسبات وتلبية الدعوات.

في الوقت نفسه، اتجهت كل الضغوطات، لجعل غزة بلا سوق عمل، وبلا أفق للأجيال، وبلا دخل على الأسر. فالحصار أدى مفاعيله، ولكي تتفاقم الأمور أكثر، تولى رئيس السلطة الفلسطينية مهمة المساعدة في الإفقار، لكي يعوض -بالمعنى السلبي- ما تفعله الهيئات الإغاثية والدول التي ترسل مساعدات عينية، لتخفيف آثار الحصار. فمع كل إغاثة، كانت هناك قوائم قطع لرواتب الموظفين.

أما حماس نفسها، التي اتخذها محمود عباس ذريعة لكي يفعل ما فعل، فقد زادت أو زاودت على عباس، إما بالاستيلاء على المساعدات العينية من غذاء ودواء، وبيعها في الأسواق الفقيرة، وإما بإحكام إغلاق سوق العمل أمام ضحايا الفعل الأول. ذلك فضلًا عن اعتماد حكمها على منطق البطش والحديد والنار.

وبناء على هذا الذي جرى، لن يخطئ من يقول إن "صفقة القرن" توغلت في شرايين الحال الفلسطينية، قبل أن يفكر أصحابها في موضوعها!

في هذا الخضم، ومنذ بداية انقلاب حماس، كان الواقع معلوما ومقروءا. فالذي حدث بعد ثلاث سنوات، أن الاستجابة الحمساوية، للشق السياسي من الواقع، جاءت ضمن ورقة المصالحة في العام 2011 التي وقعت عليها الحركة دون أن تفكر مجرد تفكير في تطبيقها آنذاك. وبات الفلسطينيون أمام طرفين عنيدين يتعاميان عن واقع المجتمع.

واحد يرسل الوفد ويوصيه ألا يعود باتفاق، كما كان يفعل عباس ويتعمد اختيار عناصر ينطبق عليها المثل الذي يقول "إرسل حريصًا ولا توصه". وآخر يرسل الوفد ويعطيه صلاحية التوقيع، قائلا له "لا تقلق، إن الثغرات كثيرة، وخيرها كثير، والفلتان من التطبيق مؤمن بحمد الله الذي تتم به الصالحات". وكان ذلك صحيحا بالنسبة لحركة تبنت عمليات حفر نحو ألفي نفق تحت الأرض، ساعدتها اقتصاديًا حتى باتت شبه مستغنية -آنذاك- عن حقائب الدولارات، لنفسها طبعًا!

> لم يعد الأمر يُطاق. ففي السياسة هزلت ورقة السلطة، وفي المقاومة هزلت تعليلات الهجمات الصاروخية، والمحتلون معنيون بالهُزالَيْن. لذا أصبح الطرفان معنيين بتلاقي المتعوس مع خائب الرجاء

بعد مرور أكثر من اثنتي عشرة سنة على هذه الحال، وجدت حركة حماس في غزة نفسها بلا حلول، كما وجد عباس نفسه بلا ورقة سياسية وازنة على ميزان الذهب. لا حلول لدى الأولى، ولا وريقة لدى الثاني الذي تردت سلطته.

أما القضية نفسها فقد باتت في مهب الريح، أو في حال بائسة وهي في أيدي الطرفين، لكن قوتها لدى الشعب المحزون، ازدادت وتعمقت. وهذه الحقيقة الأخيرة، أخطأ الأميركيون في قراءتها، فظنوها من نوع الكوارث التي استحقت الغزو السياسي والمالي، تحت عنوان "إعادة الأمل"، وهذا نوع لم يُجدِ مع الصومال، حتى عندما جاء مشفوعا بقوة الغزو العسكري!

بعدئذٍ وجدت حماس نفسها مضطرة إلى المأسسة السياسية. ففي بداية انقلابها على النظام الفلسطيني في غزة، اكتشفت هي و"الإخوان" أن غزة لن تصبح جغرافيا سياسية للجماعة. فالجغرافيا السياسية تتاح من خلال فتح الحدود وسلاسة المرور، ومن خلال العلاقات الدولية. انكفأت لسنوات داخل حدود غزة، ولم يكن خطاب "الإخوان" الجامح يُسمن ولا يُغني من جوع. وفي السنوات الثلاث الأخيرة، بدأ التفكيك، الذي ظنت الحركة، أن خطواته محض تكتيكية. فـ"الإخوان" بطبائعهم، أجهل الناس بكيمياء السياسة وفي قراءة الواقع وتقدير احتمالاته. فلو كانوا يفهمون، لما اقتربوا من الحكم، واكتفوا بالبقاء قوة وازنة في المشهد السياسي، ولو أصبحوا يفهمون أكثر، سيكونون أثقل وأفعل إن حافظوا على رضا الشعب عنهم، وحسموا أمر السلطة، بتعزيز مؤسساتها الدستورية وورقتها السياسية وانحازوا إلى القانون وإلى الوثيقة الدستورية، على النحو الذي سيجعل من الاستحالة استمرار سياقات الفساد والاستبداد.

فما حدث هو العكس، حتى أصبح المواطن الفلسطيني في غزة، حائرا وهو يقارن بين فساد وفساد، من طرفين لا يطيقان وجود المؤسسات الدستورية. وبالطبع رجحت كفة حماس في موازين قياس الفساد، على أصعدة السرعة والوقت والتجرؤ والكم والكيف، وفي التأثيرات الكارثية على المجتمع الفلسطيني.

لم يعد الأمر يُطاق. ففي السياسة هزلت ورقة السلطة، وفي المقاومة هزلت تعليلات الهجمات الصاروخية، والمحتلون معنيون بالهُزالَيْن. لذا أصبح الطرفان معنيين بتلاقي المتعوس مع خائب الرجاء. هما يأملان في شكل من التقاسم، للاستمرار في السيطرة، رُغم توافقهما على الذهاب إلى انتخابات.

حماس، من جهتها، تمر بلحظة الإحساس أنها استكملت شروط تأهلها للسياسة: هي صديقة للدولة المصرية، بخلاف ما هو خيار "الإخوان". وهي متعاونة أمنيًا معها بخلاف ما يتمناه "الإخوان". وهي مستعدة للتهدئة وللمصالحة ولإرسال الوفود إلى روسيا فلاديمير بوتين، ولإنجاح الجهود المصرية، بخلاف ما يريده محورها الإقليمي الرئيس.

في هذا السياق، نطق قبل أيام، أحد المشتغلين بالخطاب القديم، عندما كانت الحركة تظن أن الدنيا قد خلت لها، وأن في مقدورها أن تغسل يدها تماما من كل المفردات التي تأسست بموجبها السلطة أصلا. كان ما نطق به عنصرها القيادي، نسخة موسعة لم تكن تصلح إلا للجلسات السرية قبل عشرين سنة. دعا إلى الانقضاض على اليهود في كل مكان، ليصبح المواطن الفلسطيني في كل مكان من شتاته الواسع، مضطرًا إلى التبرؤ مما قاله قيادي الزمن الرديء. واضطرت حماس إلى الاعتراض على صاحبها، للمرة الأولى، ببيان رسمي.

إنه التكيف الجديد، والحتمي، مع واقع ومعطيات قديمة. لقد تأخر "المؤمنون" كثيرا في قراءتها، والواجب الآن، المثابرة على قراءة كيمياء السياسة!